

إعادة قراءة الثورة الإسلامية في الذكرى السابعة والثلاثين



الثورة الإسلامية في إيران هي واحدة من الأحداث الفريدة في العصر الحديث، وتمثّل بزوغ فجر جديد في تاريخ البشرية، والتي شكلت مصدراً لآثار مذهشة في الأبعاد الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية... داخل إيران وخارجها. ومن المؤكد أن الشجرة الطيبة للثورة قد أثمرت من خلال ينبوع المعارف النقي والمعتقدات الإسلامية للشعب الإيراني المثابر والمضحّي، وعبر الاعتماد على الجذور الراسخة لخلفياته السياسية والاجتماعية والثقافية. ولا يخفى على إحدى ضرورات دراسة الماهية وكذلك الأسباب والعوامل المساهمة في ظهور هذه الظاهرة، ومعرفة آثارها وبركاتها. وحول الجوانب الفريدة لهذه الثورة المجيدة التي وقعت في العقود الأخيرة من القرن العشرين، هنالك الآلاف من الكتب والمقالات والأعمال الفنية القيمة الأخرى. ونحن بمناسبة الذكرى السنوية لهذه الملحمة الكبيرة والصانعة للتاريخ، نستعرض بعض الجوانب الهامة منها فيما يلي:

إن الخطوة الأولى في دراسة أي ظاهرة، هي تبيان مفهومها. ولربما هنالك تعريفات عن الثورة بعدد العلماء الذين كتبوا عن مفهوم هذا المصطلح. هذه التعاريف لها أوجه التشابه والاختلاف فيما بينها بدرجات مختلفة، وكل واحد منها يكشف زاوية من زوايا الثورة.

مما لا شك فيه أنه لا يوجد توافق في الآراء على أي تعريف مرضٍ ومقبول بشكل عام لأي مفهوم. وفي دراسة تعاريف الثورة، نواجه مكونات مثل التغيير الجذري والهيكلية، تغيير المؤسسات، انتقال النخب، العنف والفوضى...، والتي دخلت في تعريف الثورات استناداً إلى تحليل الثورات العالمية.

وقوع الثورة الإسلامية في إيران، التي هي واحدة من أكبر الأحداث في تاريخ القرن العشرين، وتعدّ من الحركات الاجتماعية - السياسية الأكثر أهميةً، قد تحدى التعاريف الموجودة وكذلك نظريات الثورة، وأعقب الحاجة إلى تقديم تعريف جديد عن الثورة. غياب التوافق في الإدراك المفهومي للثورة، سببه تعقيدها بوصفها ظاهرةً اجتماعيةً، الأمر الذي يعود إلى تعقيد وغموض الإنسان. مع ذلك من الجدير بالذكر أنه ربما يمكن من خلال فهم الإشارات والرموز الضمنية لمثل هذه التغييرات، الحصولُ على صورة مرضية لمعنى الثورة.

الثورة الإسلامية لها خصائص فريدة تميزها عن الثورات الأخرى في العالم، وتقدم مفهوماً جديداً للثورة. وبعض هذه الخصائص هي ما يلي:

- التمتع بخلفية كبيرة من الفلسفة والفقه والمعارف الإسلامية.
- ثورة اجتماعية شاملة مع تغيير جوهري في حياة الناس.
- الإستناد إلى الثقافة والاعتقاد والإيمان في مراحل الصعود وبناء الثورة.
- الاستفادة من النهج القيمي والعمل على إصلاح المفاصل العالمية والإنسانية.
- تحكيم الثقافة التوحيدية بدلاً من الثقافة الإلحادية والاستبدادية.

قبل وقوع الثورة الإسلامية في إيران، وبالنظر إلى سيادة فكرتي الإنسانية والمادية في العالم، كان يقال بأن أنظمة الحكم يجب أن تقوم على إحدى الطريقتين حصراً: الديمقراطية الليبرالية أو الديمقراطية الاجتماعية، وإذا حدث ثورة في العالم، فليس لديها خيار سوى الاعتماد على فكرة الإنسانية أو المادية، ويجب أن تكون مدعومةً من قبل إحدى الكتلتين الشرقية أو الغربية. فوفقاً لذلك، أراد الكثير من منظري الثورة، تحليل الثورة الإسلامية في إيران في إطار أحد هذين التفكيرين، بينما أن الثورة الإسلامية سواءً في التأسيس والانتصار، أو في الأهداف الخاصة بها، كانت بمعزل عن هذين التفكيرين. بل كانت تحدياً ضد النظام الأخطبوطي للرأسمالية العالمية من جهة، والنظام الماركسي الإلحادي من جهة أخرى، ولأنها كانت مستقلةً، فلم تتفاعل مع أي منها.

في الحقيقة، لقد وقعت الثورة الإسلامية في عصر تُرك فيه الدين، حيث كان الدين يُعرّف بأنه مخدر المجتمعات، ووضعت شعار ضرورة هندسة الدين في الحياة الشخصية والاجتماعية للإنسان، أولويتها الأولى، معتبرةً أن نموذجها هو بعثة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في صدر الإسلام، ورسالتها هي رسالة الأنبياء. فكما أن الإسلام مدرسةٌ وخطةٌ للحياة، بل وثورةٌ في الأساس، فبطبيعة الحال، إن الثورة التي تستند إليه، طبيعتها هي طبيعة الإسلام أيضاً. وبالنظر إلى احتذاء الثورة حذو بعثة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإن نهج البحث عن التشابه بينهما، سيفقدنا إلى تمييز وفراة الثورة الإسلامية في العصر الحديث.

رسالة الثورة الإسلامية

كل ثورة مثل الزلزال أو البركان، تترك تأثيرات إقليمية ودولية مختلفة المستويات، وتقدّم رسالةً من أجل خلق عمقها الإستراتيجي. وكلما كانت رسالة الثورة أكثر جاذبيةً، سيتّجه عددٌ أكبر من الناس لقبولها ودعمها والاحتذاء بها. الثورة الإسلامية في إيران والتي ميزتها الأساسية هي الاعتماد على النظرة العالمية الإسلامية، حدثت في وقتٍ كانت الحركات الليبرالية والاشتراكية قد فقدت جاذبيتها. وعلى الرغم من أن العديد من المثقفين اليساريين مازالوا يحاولون القول بأن الأيديولوجية الوحيدة لتعبئة الشعوب هي الماركسية، تقدّم الثورة الإسلامية للشعب الإيراني رسالةً إلى العالم، مفادها أن الأيديولوجية الأكثر قدرةً على التعبئة هي الإسلام. والإسلام مدرسةٌ ليس فقط تمتلك القدرة على تنظيم

نضال كبير، بل في هذا العصر الآلي المعقّد، مع كل الصراعات والتناقضات التي تحتويها السياسات العالمية، قدرةٌ على حل مشاكل المجتمع وإدارته، وضمان بقاءه واستمراره. وبعبارة أخرى، إن الثورة الإسلامية في إيران، فتحت جبهةً جديدةً أمام جميع المحرومين والمظلومين، الذين يعانون من فشل وويلات الحضارة الاستعمارية المفروضة عليهم، وإن شعار "لا شرقية ولا غربية" الذي ترفعه هذه الثورة، يشير إلى رفضها لأي ظلم واضطهاد تتعرض لهما البشرية.

يمكن الإشارة إلى بعض الرسائل التي تحملها الثورة الإسلامية على النحو التالي:

- ضرورة خروج الإنسان من العبودية والاسترقاق للطاغوت، والخلص من الذل والهوان.

- الإقبال على العبودية □ تعالى والفلاح.

- الاعتراض على كل المساوئ والانحرافات والاضطرابات.

- اعتماد الحكومة والسلطة السياسية على التقوى والعدالة والحقيقة.

وباختصار، إن رسالة الثورة، هي رسالة الروحانية، أي إن الإنسان الحائر اليوم الذي سئم من عدم تلبية المتطلبات الأفضل والأسمى، وعدم رؤية وامتلاك الإخلاص والعطف والمحبة، وعدم الحصول على معرفة سامية، أخذ يبحث عن مدرسة تليّني بالإضافة إلى احتياجاته المادية، الاحتياجات الروحية أيضاً، ولأنه شاهد أينما نفذت هذه الثورة، نقلت معها الروحانية أيضاً، فوجد ضالته في رسالة الثورة الإسلامية. لذلك، يمكن القول بيقين إن نهج التدين الراهن الذي تنامي وتوسّع في العالم المعاصر، هو نتيجةٌ لتلقي هذه الرسالة.

أركان الثورة الإسلامية

إن تشكيل أي ثورة بحاجة إلى عنصر فكري وعاملين بشريين. فالعنصر الفكري هو نفس الأيديولوجية والمدرسة التي تقوم عليها الثورة، والعنصران البشريان أحدهما الشعب والآخر القيادة. وكلما اصطفّت هذه العناصر الثلاثة إلى جانب بعضها البعض، واتجهت باتجاه واحد، ستتشكل الثورة. وبديهيٌ أنه كلما

كانت قوة هذه الأركان الثلاثة أكبر، زادت سرعة تشكيل وانتصار الثورة. أما الأركان الثلاثة فهي:

ألف - المدرسة الفكرية

تقوم الثورة الإسلامية في إيران على أساس الفكر والنظرة العالمية الإسلامية. وينشأ ويتشعب من هذه النظرة العالمية الإلهية، تفسير الإنسان، تفسير التاريخ، تحليل أحداث الماضي والحاضر والمستقبل، تفسير الطبيعة، شرح كل الاهتمامات التي تربط الإنسان بالعالم الخارج عن وجوده، أي العالم والأشياء والناس، وكذلك فهم الإنسان عن وجوده، وباختصار، كل ما يشكل النظام القيمي للمجتمع، ويمكنه من إدارة نفسه بالطريقة المثلى.

وبالنظر إلى أن هناك انطباعين منحرفين ومتناقضين عن الإسلام في المجتمع، أحدهما هو الفهم الضيق والمتعصب والمتخلف، والآخر الفهم الحديث والمتسامح، فإن قائد الثورة الإسلامية الإمام الخميني (رحمه الله) قد عرّف للمجتمع الانطباع الصحيح باسم الإسلام الأصيل، والمضى بالثورة على أساسه. فمن وجهة نظر الإمام الخميني (رحمه الله):

في الثورة الإسلامية، تم استبدال إسلام الخرافات والبدع بإسلام القرآن والسنة؛ إسلام القعود والعبودية والذل، بإسلام الجهاد والاستشهاد؛ إسلام الالتقاط والجهل، بإسلام التعبد والتعقّب؛ إسلام حبّ الدنيا أو الرهبانية، بإسلام الدنيا والآخرة؛ إسلام التعصب والجهل، بإسلام العلم والمعرفة؛ إسلام التحلل الأخلاقي واللامبالاة، بإسلام التديّن والسياسة؛ إسلام الخمول والاكْتئاب، بإسلام النهوض والعمل؛ الإسلام الشكلي والقديم الفائدة بإسلام الفرد والمجتمع؛ إسلام الألعوبة بيد القوى الكبرى، بإسلام المنقذ للمحرومين؛ وباختصار تم استبدال الإسلام الأمريكي، بالإسلام المحمدي الأصيل (صلى الله عليه وآله وسلم).

إن الأساس الأكثر جوهريةً للنظرة العالمية الإلهية والإسلامية، هو أصل التوحيد، أي الإيمان بالله وبقدرته الغيبية، وسيادة العلم والقدرة والعزة والجلال والجمال المطلق، وإرادته ومشئته على الكون، وجميع الأشياء الأخرى تعود بطريقة أو أخرى إلى التوحيد. وإن واحدة من أبرز وأهم الميزات في الثورة الإسلامية الإيرانية، هي أن الدين الإسلامي أصبح مانع الثقافة الوطنية، ولهذا السبب فإن أموراً مثل الجهاد، الشهادة، الاتباع من الإنسان التقى والعدل، كراهية الظلم والطغيان، الوحدة والتضامن، التوكل على الله و... باتت في قلب هذه الثقافة، وشكلت أساس الحركة الثورية للشعب، وحققت لهم

ب- القيادة

إن قوة وسلطة القيادة في الثورة الإسلامية بعد الاعتماد على الإسلام، تنبع من مكانتها الدينية، والتي يُشترط فيها وجود ميزات مثل الفقه، العدالة، العلم، المعرفة، الزهد، الإدارة، الشجاعة، البصيرة السياسية والتدبير، خلافاً لغيرها من الثورات التي غالباً ما يأتي أناسٌ بوصفهم سياسيين محترفين، ويجلسون في موقع القيادة، عبر المال والتضليل.

الإمام الخميني مؤسس الثورة الإسلامية، عبر امتلاكه لكل الصفات المطلوبة للقيادة الدينية والإلهية، تولى قيادة الثورة الإسلامية وأظهر للعالم توجيهاته التي كانت تشبه توجيهات الأنبياء. وأحد الفروق الرئيسية بينه وبين غيره من المصلحين في تاريخ الإسلام، هو أنه بالإضافة إلى حضوره في الساحة، قد بيّن للناس مبادئ عقيدته السياسية وأوصلهم إلى الإيمان المتبصر والواعي، وبعد إثبات أحقية عقيدته السياسية، استطاع إدخال الشعب الإيراني شيئاً فشيئاً إلى ساحة المعركة، وبمرافقة هذا البحر العاصف والواسع، تمكن من تشكيل الثورة الإسلامية الكبيرة، وبالتالي، إزالة الآثار المشؤومة لسيطرة قوى الاستكبار على هذا البلد، وتحويل العالم، بحيث لا يمكن مقارنة نهضته بأي نهضة أخرى منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا.

ج - الشعب

إن أقوى أداة لدفع الثورة الإسلامية، كانت الحضور الجماهيري والحاشد لمختلف الشرائح المليونية للشعب في ساحات الثورة، الذين لبّوا نداء قائدهم بالإيمان النافذ والعميق من جهة، والمعرفة والوعي العالين من جهة أخرى، وفي ضوء توجيهاته المستنيرة والنبوية، تسلّحوا بالصبر والمقاومة والقدرة على التحمل، وأخيراً ذاقوا الرحيق العذب للانتصار على نظام الهيمنة.

واحدة من السمات الأبرز للثورة الإسلامية والتي قلما وُجدت في ثورة أخرى، هي طابعها الشعبي، بحيث

شارك فيها كل الشعب الإيراني في المدن والأرياف، الكبار والصغار والرجال والنساء. وخلافاً للثورات الكبرى في العالم والتي شارك فيها فئات معينة من المجتمع، فإن القائد الحالي للثورة الإسلامية الإمام الخامنئي، وفي تبين أنه لماذا يعتبر الشعب الصاحب الرئيسي للنظام والثورة، يقول:

الشعب هم أصحاب هذا النظام لعدة أسباب؛ أولاً، لأن الإسلام يمنح معظم الحق في إدارة النظم الاجتماعية للشعب، ويعتبر أي جهاز حكم، خادماً للشعب. وثانياً، لأن الناس هم الذين شكلوا وأوجدوا هذا النظام، ذلك أن هذا النظام قائم على الثورة، والثورة خلقها الشعب. وثالثاً، لأن مشاركة وإشراف الناس يشكلان الضمان الأكبر لحفظ النظام من الانحراف.

الملخص والاستنتاج

إن الثورة الإسلامية تفسيرٌ إلهي وإسلامي، أي تطورٌ أخلاقي واعتقادي وثقافي، حيث المجتمع ومع استدارة قدرها 180 درجة، يزيح القيم المادية الناجمة عن الثقافة الإلحادية والاستبدادية المهيمنة على المجتمع دفعةً واحدة، ويختار القيم التي تركز على الثقافة التوحيدية مع كل متطلباتها، ومع الانضباط الثوري العظيم، إذ يهدم البناء القديم والمتآكل للماضي، يقوم بتحديث المجتمع.

والثورة الإسلامية في إيران كانت ضرورةً طبيعيةً وتاريخيةً على أساس التقاليد الإلهية، تجلّت باعتبارها رمزاً للحق في العصر الحديث. حيث المؤمنون الخلاص والحقيقيون، وعبر الاستمداد بسنة النصرة الإلهية، نهضوا في عصر هجران الدين وغرق العالم في المادية، لنصرة دين الله تعالى، وبمثابة زلزالٍ في الجغرافيا الطبيعية للإنسان، فجّروا الطاقات المتراكمة في وجودهم، فسطعت أشعة نور الحق على العالم بأسره.

ومع الظهور الأعجوبي للثورة الإسلامية، بالإضافة إلى إثبات قدرة وفعالية الدين في إدارة الحياة الاجتماعية للإنسان، وجدت البشرية أمامها تجربةً ملموسةً وخطةً عملانيةً لإدارة حياة الإنسان على أساس العدل والروحانية، وتحقق مرةً أخرى نموذج بعثة الأنبياء مع رسالة الروحانية. وشعار خروج الإنسان من نير العبودية والاسترقاق للطاغوت، والخلّاص من الذل والهوان، والوقوف في وجه كل المسائى والانحرافات، اكتسب جاذبيةً، والإنسان التائه في الحضارة الآلية، وجد ضالته في تلبية المتطلبات الأفضل والأسمى في ظل الإسلام والنظرة العالمية التوحيدية.

